

إلى أرض النبوة !

[وصف وتاريخ لرحلة الوفد السوري إلى الحجاز
ربيع ١٩٣٥ نفتح طريق الحج البري لسيارات]

للأستاذ علي الطنطاوي

— ٢ —

تركنا الموكب ، وقد وقف في ظاهر دمشق ، حول قبة
(المسالى) ، وقد ملأت وفود المودعين تلك الساحة على رحبها ،
وقام الخطباء بخطبهم ، وقت أشكرهم باسم الراحلين وأودعهم ،
وأشرح الفرض من هذه الرحلة . وكانت الشمس قد جنحت إلى
الغيب ، فزاد شجوبها الموقف رهبة وجلالاً ، وأقبل للناس علينا
يودعوننا ؛ فلم تكن ترى إلا عناقاً أو تقييلاً وإخلاصاً متجلياً ،
وحباً وعطفاً ، فلم يبق في الناس من لم تسلم عبراته ...

وإن أنس لا أنس مشهد حفيد لركي آغا سكر من وجوه
البيدانيين ، ورفيقنا في سفرنا ، وقد تماق به لا يريد فراقه ، ويكي
فيكينا ؛ فما كان أبغ من بكاء الطفل الحفيد ، إلا بكاء الجد
الشيخ ، وما تركه حتى انتزعوه منه انتزاعاً ، وإن صوته ليرن
في آذاننا بنادي : جدي جدي

وغادرنا دمشق ، وكان الليل قد أسدل ستارته على الكون ،
ومازلنا نغنى عن هذه الجموع الهاتفة لنا ، الداعية بالتوفيق والنجاح ،
ويتمتع عن هذا الحشد ، حتى اتلع صوته الليل وطواه سكونه ،
وغاب سواد الجمع في سواده الشامل ، ولم يبق من حولنا إلا للسهر
للفيح ...

وكان ضمت بليغ ، فلم يندب واحد منا ، واستسلمنا جميعاً إلى
عواطفنا وأحلامنا ، وقد هاجها موقف الوداع ، وأغارها هذا
الستقبل المجهول الذي تقدم عليه ، وهذه الصحراء الرعبة التي
نسى إليها ، وهذه البقاع المقدسة التي نقصدها . وكنا نلتفت
بين القبة والفينة ، فتملاً للعين بمرأى أضواء (المهاجرين)^(١) ،
وهي تسطع على نفوسنا المظلمة ، كما تسطع النجوم الهادية في الليلة
الداجية ، على الصال الحائر ؛ ولم يكن ندرى ، أنموذ إليها فتراها

(١) إلى الدمشقي الذي يقوم على سفح قاسيون وفيه « الجادة الخامسة »
ذات الجلال والجلال

كرة أخرى ، أم ستأكلنا الصحراء فيكون ذلك آخر العهد بها ؟
وكنا نحدق فيها لننقش صورتها في نفوسنا ، حتى نأنس بها
في ليالي اللبء ، ونذكر فيها آخر آية من آيات دمشق (البلد
الحبيب)

وكانت السيارات تسير متعاقبة يكاد ينوء بها ثقل ما تحمل^(٢)
وكانت تحمل فوق طماننا والشراب للفرش والحليام ، وللفدور
والطباق ، ومائتي (سفحة) بزبن ، وعدداً هائلاً من آلات
السيارة وأدواتها ، وراديو (راد) وغير ذلك مما نسينه الآن ،
فكنا نموتها بالله ، ونرجو لها التوفيق ، وليس فينا من يتحدث
أو يتكلم إلا قائلاً كلمة ، وسامعاً جواباً . ثم يرجع للصمت حتى
طلعت علينا أضواء أذرع (درعاً) قسبة حوران ...

بلنا أذرع (درعاً) عقب المساء . فلبثنا فيها رأياً نظروا في جواز
سفرنا ورأياً سألنا . وأذرع اليوم بليدة جميلة ذات قسمين — قسم
جديد منظم بني على المحطة ، وقسم قديم يتأى عنه قايلاً — وفيها
سوق كبيرة ، وأبنية جيدة ، وهي نسيمة ذكرتها العرب في أشعارها
لأنها — كما قال ياقوت — لم تزل من بلادها في الإسلام وقبله ،
وأنتد لبعض الأعراب :

ألا أيها المبرق الذي بات يرتقي ويجلودجى الظلماء ذكرتني نجداً
وهيجتني من أذرع وما أرى بنجد على ذي حاجة مدنف بمدا
وذكرها امرؤ القيس ، وعد ياقوت جماعة من العلماء خرجوا
منها ، وليس فيها الآن من العلماء أحد (فيما نعلم) يذكر . وعالم
حوران وقيمها اليوم الشيخ التقى الصالح الشيخ الطيبي الدمشقي
وهو فوق التسمين ، وهو بقية للسلف الصالح — وفارقتنا أذرع
تسير شرقاً إلى بصرى بعد ما همتنا^(٣) بال القداد أعيان وجوهها
نبتهم بوصولنا ، فلم يبلغ نصف الطريق إلى بصرى حتى رأينا
أضواء كثيرة ومصاييح تهيء وتروح . فذهبتنا أن يكون في البرية
مثانها ، ودنونا منها فإذا هي أضواء السقيلين الكرام ، مجروا
مضاجهم وأقبلوا يتلقوننا من نصف الطريق . فحيونا ومشوا
بين أيدينا يهزجون الأهازيج البدوية حتى بلغنا بصرى

(١) هذا هو التعبير الصحيح وإن كان مكسبه هو الشائم

(٢) أي تكلمنا بالتلفون واسمه في الشام الهاتف ، وهو اسم معروف منذ

الخاصة والعامه

أني رأيت مثلها برداً ، ونحن في العراق ما حسنت والله كأن عظامي
ترتجف من البرد ، وبلغ منا النعاس وما نطيق أن ننام ، وأين
وكيف ننام ؟

فلما طلع النهار ، وتعارفت الوجوه ، رأينا الحاج غراب على
بمد خمسين متراً منا ، وإذا المحترم ينتظر أن نأتي إليه ...

وأردناه على الإبراع قبل أن يبصرنا بمض أعوان المستر
كلوب ، ملك البادية المسمى (أبو حنيك) لأن رصاصة كانت
قد أصابت حنكه فتركت فيه أثراً . وسألناه ، هل يعرف الطريق
أم يجبئ بنا خبط أعشى ، فعجب من سؤالنا وأكد لنا أنه يعرف
البلاد كلها شبراً شبراً ، وأنه سلك هذه للطرق بعدد شمر رأسه ،
فاطمانا وسرنا معه ، وكانت الشمس قد طامت ، وانقضت أول
ليلة من ليالي الرحلة

فاطمانا وسرنا معه ، فصعد بنا جبلاً وعمرأ فيه أحجار
وحفر ، فرنا فيه ساعة كاملة وهو لا يزداد إلا وعورة . فقائلنا :
ويحك يا هذا ، إلى أين تمشي بنا ؟ قال : إن علينا أن نجاوز هذه
الوعرة ، كي نبلغ قرى الملح من غير طريق الأزرق فقلت له :
ويحك ، هذا والله البلاء الأزرق والموت الأشقر . وإنه ليوشك
إذا أوغلنا في هذه الوعر ألا نخرج منها ، فعد بنا ولو إلى
الأزرق ، فإذا في الأزرق إلا الجزاء النقدي ؟

واختلفت الآراء وتجادل القوم ، ثم اتفقوا على العودة ،
فعاد بنا الدليل من حيث جاء ، حتى إذا هبطنا الجبل سار بنا
في طريق معبدة فسرنا فيها ، ثم سرنا وهي لا تنتهي حتى كاد
للنهار يزول ، ثم وجدنا مراكز من مراكز البترول فيه ضابط
انكليزي ، فسألناه : إلى أين تؤدي هذه الطريق ؟ قال :
إلى العراق ، وقد اقتربتم من الحدود

فوثب أصحابنا على الدليل يوسمونه سباً وشتماً على أن طوح
بهم حتى كاد يهلكهم بجبهله ، وهو صابر ساكت لا يتنطق بحرف ،
فتركه القوم واتهموا بينهم فقال قائل منهم : إني لأعرف طريقاً
في الحرة يصل بنا إلى القرى ، وقد جزته فوجدته سهلاً .
فقالوا له : سر بنا إليه ، قال بهم ذات الميخ ، ثم دار دورة فإذا
نحن في حرة من أصعب الحرار واسمه ممتدة الجوانب ملتوية
مفروشة بمجارة سوداء لاعة ، كأنها قد صب عليها الزيت ،
حادة الجوانب كأنها للسكاكين ، فلما بلغنا وسط الحرة رأينا

ولبصرى ذكر في التاريخ مستفيض ، ومجد مؤئل ، وفيها
كثير من آثار الماضي ، ولم أكن قد دخلتها من قبل ،
فما استطعت رؤيتها في الظلام ، ولم ألع من آثارها إلا صغين من
الأعمدة الضخمة ، فأعين عند مدخل البلد ، على طرفي الطريق الذي
سلكناه إلى منزل آل المقداد حيث رأينا الكرم الذي لا كرم بعده
وبصرى مذكورة في الشعر قديماً وحديثاً ، ولستكنهم
لم يذكروها إلا ليذكروا نجداً ، وبعثوا شوقهم إليها ، وكانهم
لم يروا فيها ولا في النوبة ولا وادي بردى ما ينسبهم تلال نجد
ورماله ، وذلك من حكمة الله فإنه لولا حب الوطن ما سكن البلد
الفقار أفن قولهم فيها :

أيارفة من آل بصرى يحملوا رسالتنا لقيت من رفة رشدا
إذا ما وسلمت سالمين فبلغوا تحية من قد ظن ألا يرى نجداً
وقولا له ليس الضلال أجازنا ولكننا جزنا لقلنا كم عمدا
ولمنا فيها إلى موهن من الليل^(١) ثم خرجنا يصحبنا دليل
من أهلها ليسير بنا إلى (قرى الملح) القرية النامية لابن سمود
من غير أن نمر على المنخر الانكليزي في (الأزرق) لأننا لم نستأذن
من الفئصل الإنكليزي لتمر على بلد من بلادنا ... وكان اسم
الدليل الحاج نمر ، وقد زعموه خبيراً بالطرقات ، عارفاً بالأرض ،
خريبتاً حاذقاً . فتوكلنا على الله ، ثم على هذا الدليل الحاذق !

سرنا إلى الجنوب ، نجبئ في ظلام الليل ، لا تتبع جادة
مسلوكة ، ولا طريقاً واضحاً ، يقودنا الحاج نمر . وبليت اسمه الحاج
غراب ، فقد أضلنا ، كما (قد ضل من كانت الضربان تهديه) ...
حتى بلغنا قرية كبيرة اسمها (أم الجمال) فيها بنيان كبير ، وأزقة
وطرقات ، وفيها برج عال قديم ، ولكنها مهجورة منذ قرون ...
ليس فيها ديار ولا نانخ نار ، وهي موحشة في راد الضحى
فكيف بها في الليلة الظلماء ؟ فما كان من صاحبنا الحاج غراب
إلا أن دير به وغثت نفسه وجعل من الدوار والتمثيان يبق . وقد
رشده ، فصرنا عليه حتى أفاق فسألناه عن أمره ، فإذا هو لم يركب
في عمره سيارة قط ولذلك دار رأسه ، فمالجناه حتى برى ، فلما
برى رأى الطريق مختلطاً عليه ، فأمرنا بالوقوف في هذه البليدة
الموحشة التي لا يدركها إلا الجن ... وذهب في سيارة يكشف لنا
للتريق ، فانتظرناه إلى الفجر فلم يرجع ، وكانت ليلة ما أذكر

(١) منتصف الليل